

القرآنيون وأهم شبهاتهم (دراسة نقدية)

علي أحمد ناصح*

أستاذ مشارك بجامعة قم

وفاء نصرالله

طالبة الدكتوراه في علوم القرآن و الحديث بجامعة قم

(١٩٣-٢١٦)

تاريخ الاستلام: ٩٠/٠٩/٢٠؛ تاريخ القبول: ٩٢/١٢/١٤

الملخص

يتناول هذا المقال الآراء الحديثة والقرآنية لتيار إسلامي نشأ بين أهل السنة وسمي بالقرآنيين، ولد هذا التيار في الهند ثم انتقل إلى مصر والعالم العربي. يعتقد أصحاب هذا التيار أن القرآن هو المرجع الوحيد الذي اشتمل على جميع قضايا الدين، ولا يؤمنون بحجية السنة كمرجع للتشريع لسببين: الأول لأنها ليست وحياً كوحى القرآن، الثاني لأنها تعرضت للوضع بسبب التأخر في التدوين، وهم يدعون إلى عصرنة القرآن والإصلاح الديني، ففسروا القرآن بمنهج عقلي يعتمد على التدبر والاجتهاد الحر، مما جعلهم يأولون حقائق القرآن الغيبية إلى ظواهر طبيعية حسية لتأثرهم بالعلوم التجريبية، وأنكروا دور السنة في التفسير، ورأوا أن القرآن لا يحتاج إلى التفسير؛ لأن التفسير يكون للشيء الغامض، والقرآن مبين وميسر للفهم، ولا يحتاج لأكثر من التدبر في آياته، فلا اعتبار لديهم لدور الروايات في التفسير ولا لأقوال المفسرين، فأكثر استدلالهم قائمة على المغالطات. هذا المقال يقوم بتعريف أشهر طوائف القرآنيين وزعمائهم واتجاهاتهم الفكرية والعقائدية، وتناقش شبهاتهم فيما يتعلق بحجية السنة النبوية والقرآن الكريم.

الكلمات الدلالية: القرآنيون، الأحاديث، التشريع، الوحي، النسخ.

المقدمة:

رغم تأكيد القرآن الكريم على أهمية السنّة النبوية ودورها في التشريع من خلال جملة من الآيات القرآنية التي فرضت طاعة الرسول (ص) والتأسي بسنته المباركة قولاً وفعلاً، وجعلت تلك الطاعة من شروط اعتناق الدين والعمل بآيات الذكر الحكيم، ومع ذلك فإن السنة المطهرة كانت هدفاً لأعداء الإسلام منذ زمن بعيد، فمحاولة الفصل بين القرآن والسنة النبوية أمرٌ ترجع جذوره إلى اللحظات الأخيرة من حياة النبي الأكرم (ص).
لكن هذه المحاولة باتت لتتجدد مرةً أخرى في السبعينيات من القرن التاسع عشر الميلادي بقالبٍ جديد عن طريق من عُرفوا بـ (القرآنيين) أو (أهل القرآن)، فمن هم القرآنيون؟ وما هي أهم اتجاهاتهم الفكرية؟ وما هي أشهر طوائفهم؟ هذا المقال سوف يُجيب عن هذه التساؤلات ويُعالج أهم مغالطات القرآنيين بأدلة علماء الفريقين العقلية والنقلية.

نشأة القرآنيين في القارة الهندية:

في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، بدأت تغزو الهند الدعوة إلى الاعتماد على القرآن ونبذ السنة في التشريع الاسلامي، عُرف هؤلاء باسم أهل القرآن أو القرآنيين . استفحلت أفكار القرآنيين في القارة الهندية وانتقلت إلى بعض الدول الإسلامية على رأسها مصر، التي لم يبلغ فيها القرآنيون التنظيم القوي كما في الهند.
يتبنى فكر القرآنيين على اعتبار أن القرآن الكريم هو المصدر الوحيد للتشريع في الإسلام، وإنكار عصمة النبي (ص)، على إعتبار أنه بشر يجوز عليه الخطأ والسهو والنسيان، فلا وحي عندهم إلا وحي القرآن وبالتالي لا يعتقدون بحجية الأحاديث المنسوبة للنبي (ص).
وقد مهّد لظهور جماعة القرآنيين، حركة العصرية والتجديد التي قادها أحمد خان بين مسلمي الهند، وكان متعاوناً مع الاستعمار البريطاني، فحين ثار الهنود المسلمون في دهلي على الاستعمار البريطاني سنة ١٨٥٧م، وقف أحمد خان ضدّ هذه الثورة.
قام أحمد خان بالتعاون مع آغا خان الثالث، إمام الإسماعيلية الآغاخانية، وتمويله السخي قام بافتتاح أول (جامعة إسلامية عصرية) في عليكرة.

أما منهج أحمد خان القرآني فهو يفسر آيات القرآن تفسيراً عقلياً محاولاً توفيقها مع العصر الحديث، فيؤول المعجزات المذكورة في القرآن تأويلاً مخالفاً لما عليه المسلمون، كما حاول تفسير آيات الجنة والنار تفسيرات رمزية تمثيلية، خلاف مضمونها الظاهري، كما رفض أحاديث علامات الساعة، ورفض الاعتقاد بأن المسيح ليس له أب فهو يعتقد أن له أباً وأماً. وقد كان أحمد خان بمنهجه هذا أول من اختط طريق الاعتماد على القرآن فقط، وحاول فهمه فهماً عصرياً، والتشكيك بالأحاديث والأخبار والدعوة لغربة التراث الروائي (رستم، ٢٠٠٨: ٣٧٦).

الجدور التاريخية للقرآنيين:

يعتقد بعض الباحثين أن فكرة إقصاء السنة ظهرت لأول مرة علي يد الخوارج الذين رفضوا إقامة حد رجم الزاني المحصن، ومسح الخفين وغيرها من التشريعات المنقولة عبر الرواية عن الرسول (ص) والتي غير موجودة في القرآن.

أما في العصر الحديث فظهرت فكرة إنكار السنة في الهند إبان الاحتلال الانكليزي على يد أحمد خان الذي وضع شروطاً تعجيزية لقبول الحديث مما جعله ينكر أغلب الأحاديث، ثم تلاه عبد الله جكرالوي في باكستان الذي كان يشتغل بدراسة الحديث، ثم اصطدم بالعديد من الشبهات حوله، فتوصل في النهاية لإنكار كافة الأحاديث النبوية و أسس جماعة تسمى أهل الذكر والقرآن، دعا من خلالها إلى أن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع؛ وتبنت نفس الفكر أحمد الدين الأمر تسري، مؤسس جماعة أمة مسلمة ، كان يدعو فيها لأفكاره؛ وأخيراً غلام أحمد برويز الذي كان سبباً لتحويله إلى فكر القرآنيين تفسير إحدى الآيات القرآنية (الأحزاب، ٦٩) التي عقبها رواية تفسيرية مروية عن أبي هريرة. (الهي بخش، ١٩٨٩ م: ٥٠، ٥٤).

واتفقت المصادر التي بحثت عن نشأة القرآنيين في الهند وانتشارهم إلى بقية المناطق الإسلامية وإدلائهم بالآراء المخالفة للدين هم الثمرة التي بذر بذورها أعضاء حركة أحمد خان في الهند، استجابة لمخطط انكليزي.

أبرز شخصيات القرآنيين في القارة الهندية

- يعد عبد الله بن عبد الله الحكراولي، مؤسس جماعة أهل الذكر، على رأس زعماء القرآنيين في باكستان. ولد عبدالله في نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، وكان بارعاً في المناظرة والجدل وكثير الإهانة للتراث الاسلامي، لذلك حمل ذكره بين الناس، وقد كان له مؤلفات كثيرة منها: تفسير القرآن بآيات الفرقان، ترجمة القرآن بآيات الفرقان، ردّ النسخ المشهور في كلام الرب الغفور، والبيان الصريح لإثبات كراهة التراويح. فحكرالوي هو أحد المتأثرين بأحمد خان، وكان مما ابتدعه أنه شرّع لمؤيديه طريقة جديدة للصلاة وقال: إن الأذان والإقامة بالشكل الذي يؤديه المسلمون بدعة.
 - أحمد الدين الأمرتسري: مؤسس فرقة الأمة الإسلامية المولود ١٨٦١م بمدينة أمرتسر بالهند. ومن مؤلفاته: معجزة القرآن، تفسير بيان للناس، وكان ناقداً لاذعاً لميراث المسلمين، توفي ١٩٣٦م.
 - حافظ محمد أسلم جراجبوري: ولد سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨٠م، وكان من أركان القرآنيين البارزين، من مؤلفاته: الوراثة في الإسلام، حياة عمرو بن العاص، تاريخ نجد، تاريخ القرآن، تاريخ الأمة الإسلامية، عقائد الاسلام؛ توفي ١٩٥٥م في الهند.
 - غلام أحمد برويز: رئيس جمعية أهل القرآن و مؤسس حركة طلوع الإسلام، ولد غلام أحمد سنة ١٩٠٣م في الهند، ونشأ في بداية حياته متأثراً بالصوفية، أصدر سنة ١٩٣٨ مجلة طلوع الإسلام، وكان يتميز باطلاعه الواسع على الأفكار الأوربية، ويرى وجوب صبغ الاسلام بها؛ إضافة إلى ذلك يعتقد أن النظريات العلمية حقائق لا تقبل الجدل والمناقشة، لذا يجب تفسير القرآن بمقتضاها، مثل القول بالتطور في وجود الخلق وإنكار حوارق العادات. لكثرة مؤلفاته سماه البعض (مؤلف الحركة القرآنية)، من مؤلفاته: تبويب القرآن وهو معجم لمعاني القرآن، أنا والرب، إبليس وآدم، المجتمع المسلم، عالم الغد، الحركة القاديانية وختم النبوة، القرآن والدكتور محمد إقبال. طرح أفكاره للإستفتاء بها أمام العلماء؛ فأفتى ما لا يقل عن ألف عالم من علماء الدين في باكستان والهند والشام والحجاز بتكفيره وخروجه عن الاسلام، توفي سنة ١٩٨٥م.
- (دانشنامه جهان اسلام، ٥٨٠، ش ٢٧٣٢)، (<http://www.tolueislam.com>)

- جعفر شاه بلواري: أحد زعماء جماعة طلوع الإسلام، ومن المكثرين في الكتابة عن آراء القرآنيين في الوقت الحاضر، له مؤلفات عديدة منها: إتمام السنة، ورياض السنة، والدين يسر.
- محمد رمضان: أحد تلاميذ عبد الله حكراوي، ومن أهم أعماله إصدار مجلة بلاغ القرآن التي لا تزال تحمل آراء بعض القرآنيين إلى الآفاق الباكستانية، وله مؤلفات منها: (صلاة القرآن كما علم الرحمن)، توفي سنة ١٩٣٩م.
- چراغ علي: تأثر بأفكار أحمد خان، وكان يطالب بإعادة تدوين الفقه الاسلامي من جديد، وعن قواعد الجرح والتعديل، والمعايير التي وضعها علماء الحديث لتمييز الحديث الصحيح من السقيم، كان يقول: لاجحة إليها لتمييز صحيح الحديث من سقيمه، لأن الحديث في حد ذاته شيء لا يمكن الاعتماد عليه.

نشأة القرآنيين في مصر

يُعتبر الدكتور أحمد صبحي منصور الزعيم الروحي للقرآنيين في مصر والعالم العربي. يعتقد الدكتور منصور أن جذور القرآنيين بدأت منذ حركة الشيخ محمد عبده الإصلاحية عام ١٩٠٥م، فيقول: إن محمد عبده رفض الحديث والتصوف، وانتقد البخاري، وأنكر الشفاعة، كما أن تلميذه رشيد رضا خالف مبادئه، وتعاون مع السلفية، وهو أستاذ لحسن البناء، مؤسس جماعة (الإخوان المسلمين)، ثم قال: إن آثاراً من مدرسة محمد عبده ظلت باقية، وآخر من كان فيها الشيخ محمود شلتوت، شيخ الأزهر السابق الذي توفي في ستينات القرن الماضي، وقبله الشيخ مرتضى المراغي، شيخ الأزهر في الأربعينيات. عمل أحمد منصور بالتدريس في الأزهر ١٩٧٧م، واصطدم بعلماء الدين السنة من الصوفية والسلفية الذين اضطهدوه، وفصل عن عمله سنة ١٩٨٧م، وأدخل السجن بتهمة إنكاره للسنة، ثم عمل بعدها بشكل مستقل يدعو لأفكاره في مركز ابن خلدون بمصر. وفي عام ٢٠٠٢م اضطرت للهجرة لأمريكا لاجئاً سياسياً بعد إغلاق مركز ابن خلدون، وظهر في أمريكا على ساحة الانترنت العربي داعياً لمنهجه الجديد، فأسس المركز العالمي للقرآن الكريم «IQC» في ولاية فيرجينا، وموقعه على الانترنت

(<http://www.ahlalquran.com/arabic/main>)، فمن خلاله بدأ ينشر مقالاته ومؤلفاته للتعريف بمنهجه والدعوة إليه.

أهم كتبه ومؤلفاته:

اشتهر احمد منصور بكثرة التأليفات، فمن أهم كتبه: الزكاة، والسيد البدوي بين الحقيقة والخرافة، وحق المرأة في رئاسة الدولة الاسلامية، ووظيفة القضاء بين الاسلام والمسلمين، وإنكار السنة في مقدمة صحيح مسلم، والصيام ورمضان: دراسة اصولية تاريخية، وليلة القدر بين القرآن و علم الحديث، وأسس البحث التاريخي، وحرية الرأي بين الاسلام والمسلمين، والمسلم العاصي، والصلاة بين القرآن الكريم والمسلمين، ولاناسخ ولامنسوخ في القرآن الكريم، والقرآن وكفى، وحد الردة، والتأويل.

يعتقد بعض الباحثين أن الدعوة لإنكار السنة في مصر بدأت في عهد محمد علي باشا، عندما بدأت البعثات العلمية تغدو وتروح لتلقي العلم في إيطاليا؛ وأظلم الجو أكثر من ذي قبل بعد وصول جمال الدين الأفغاني الذي أحل رابطة الوطن محل رابطة الدين، ودعا لوحدة الأديان الثلاثة، ثم تبعه محمد رشيد رضا في مجلته الشهيرة (المنار)، ثم تلميذه محمد عبده الذي صاغ مبادئ الحزب الوطني بمساعدة المستشرق بلنت، على أنه حزب سياسي داعياً للفصل بين الدين والدولة . ثم أخذ على تطويع الشريعة لتقبل مبادئ الحضارة الأوروبية، لاسيما بعد توليه منصب الإفتاء بدعوى الإصلاح الديني، الذي حدّده تلميذه مصطفى عبد الرزاق في ثلاثة أمور:

- تحرير الفكر من قيد التقليد، ومن أحكام زعماء الدنيا وزعماء الدين.
 - اعتبار الدين صديقاً للعلم، إذ لكل منهما وظيفة يؤديها.
 - وجوب أن يكون القرآن هو الأصل الذي تحمل عليه المذاهب و الآراء في الدين.
- (مزروعة، ٢٠٠٥م: ١١٤)

ومن خلال جامعة القاهرة ثم الجامعة الأمريكية البروتستانتية الإنجليزية بالقاهرة فتحت الأبواب لعشرات المستشرقين الذين وفدوا إلى مصر للتدريس فأعدوا أجيالاً مازالوا هم طليعة الكتاب ورجال التدريس، فتوالى على رئاسة الجامعة نفرٌ كثيرٌ من منكري السنة.

وانقسم هؤلاء إلى ثلاثة أقسام:

- قسمٌ هدف إلى نبذ الدين وهدم كل مايمت بصلةٍ إلى الله.

- قسم أنكر السنة إجمالاً مدّعياً أنّ القرآن فيه ما يكفي لتشكيل الحياة.
- قسم أنكر بعض السنة وأخذ بعضها مما يتوافق مع هواه وعقله (أحمد، ٢٠٠٩م: ٥٤)

أبرز شخصيات القرآنيين في مصر

- أحمد صبحي منصور، كان يعمل استاذاً في جامعة الأزهر، فتم فصله بسبب انحرافاته، غادر مصر إلى أمريكا، واستقر بها، وما زال ينشر أفكاره منها عبر الانترنت العربي على موقع خاص بالقرآنيين.
- أمين يوسف علي، الزعيم السابق للقرآنيين بمنطقة المطرية بالقاهرة، كان يعمل خطيباً بمساجد وزارة الأوقاف، وهو أحد الذين تم حبسهم في قضية هذا التنظيم عام ٢٠٠٢م.
- إيهاب عبده، صاحب كتاب (استحالة وجود عذاب في القبر)
- علي المندوة السيسي وهو أحد الذين تم حبسهم عام ٢٠٠٢م.
- ويعد الدكتور حسن الترابي من السودان من زمرة هؤلاء، ومن مؤلفاته: (تاريخ التجديد الاسلامي).

المنهج القرآني للقرآنيين:

منهج القرآنيين في تدبر القرآن منهج عقلي يعتمد على فهم القرآن بالقرآن، ويرفضون كلمة "تفسير" للقرآن، حيث يعتقدون أن التفسير يكون للشيء الغامض أو المعقد، بينما القرآن ميسرٌ لفهم والتدبر، كما يرفض القرآنيون روايات وأسباب النزول أو التفسيرات المذكورة في كتب التراث، فهم يرون أن عامة المسلمين يقدّسون تفسيرات التراث حتى وإن تعارضت مع القرآن.

أهم أفكارهم ومعتقداتهم:

- الحديث ليس مصدراً للتشريع: لا يعترف القرآنيون بوجود وحيٍ ثانٍ مع القرآن، وكلام النبي ليس وحياً من الله، وبالتالي فهو غير ملزم للمسلمين، ولا يعترف القرآنيون بنسبة الأحاديث للرسول (ص)؛ لذلك يعتقدون بحجية السنة الفعلية دون القولية لأن الأحاديث تعرضت للوضع والتحريف، فلم تدون إلا بعد وفاة النبي (ص) بقرنين من الزمن ولأنها ليست جزءاً من الدين، فقد نهى النبي عن تدوينها وكتابتها وقد خالف الرواة وجامعوا

الحديث كالبخاري ومسلم أمر النبي (ص) في هذا النهي فعصوا الله . فلو كانت السنة وحيًا ومصدرًا للتشريع وجزءًا من الدين لما نهى النبي عن كتابتها، وهذا ماالتزم به الخلفاء الراشدون على رأسهم أبو بكر وعمر حين منعوا تدوين الحديث (للمزيد انظر: على الشهرستاني، ١٤١٨ هـ) وحبسوا بعض المحدثين في المدينة وعذبوهم بسبب روايتهم للحديث (ويكيبيديا).

- لا يؤمن القرآنيون بعصمة النبي، فهو برأيهم بشر يجوز عليه أن يخطئ أو يصيب، باستثناء تبليغه للآيات القرآنية فهو معصومٌ من السهو والخطأ وفقاً للنص القرآني.
- لا يؤمن القرآنيون بعدالة الصحابة، ويرون أن مجرد رؤيتهم للنبي لا تكسبهم العدالة، فمنهم الفاسق والمنافق وضعيف الإيمان، كما فيهم المؤمنون الصالحون.
- لا يعتقد القرآنيون بأن النسخ في القرآن الكريم بمعنى الحذف والإلغاء، وإنما بمعنى الإثبات والكتابة؛ لأن الحذف يتعارض مع كون الآيات محكمة، والنسخ بمعنى الإلغاء يستلزم التناقض والاختلاف، وهذا لا يوافق قوله تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً).
- القرآن جامعٌ لكل ما يحتاج إليه البشر، فلاحاجة للسنة، ويستندون بالآية: (ما فرطنا في الكتاب من شيء).
- عدم حاجة القرآن للتفسير، لأن التفسير يكون للأمر الغامضة والمعقدة، أما القرآن فهو تبيانٌ لكل شيء فلا بد أن يكون بيّنًا.
- نفي كل ما يتعلق بالأمر الغيبية وإنكار المعجزات.
- لامعجزة للنبي (ص) سوى القرآن.
- الطعن في بعض الحدود الشرعية كحد رجم الزاني المحصن .
- نفي الحجاب للمرأة.

يمكن أن نحدد منهج القرآنيين في البحث بالنقاط التالية:

- تحديد أفكار مسبقة ثم اللجوء إلي النصوص لإثباتها واستبعاد ما يخالفها.
- تحليل الإسلام ودراسته بعقلية أوروبية مادية، اعتماداً على القيم. والمقاييس الغربية المستمدة من الفهم المحدود والمغلوط الذي لا يدرك حقيقة الاسلام.

- عدم استيعاب المضامين الشرعية الصحيحة بسبب الجهل باللغة العربية.
- الاعتماد على الضعيف الشاذ من الأخبار، وغض الطرف عن الصحيح والثابت بهدف إثراء اتجاهاتهم الفكرية بالدليل النقلي، رغم زعمهم بظنية صدور الأحاديث وعدم القول بحجيتها.
- الأخذ بآية للاستشهاد بها دون النظر إلى بقية الآيات المتحددة الموضوع.
- تجريد المضامين الشرعية عن اصطلاحها الشرعي وحصنها بالمعنى اللغوي كالطواف بمعنى (التردد بين الحين والآخر).

أسباب شبهات القرآنيين:

- تأخر تدوين السنة.
- السنة ليست لفظ الرسول (ص).
- إن الله لم يتكفل بحفظها كالقرآن.
- إن النبي (ص) نهى عن تدوين الحديث.
- الصحاح مليئة بالأحاديث الموضوعية والضعيفة.

نتائج شبهات القرآنيين

- نفي أن للنبي وحياً غير القرآن فسنته ليست جزءاً من الدين.
- لامعجزة للنبي (ص) سوى القرآن.
- لإطاعة لرسولٍ قد مات.
- إنكار أن ليس لعيسى (ع) أب.
- نفي كل ما يتعلق بالمعجزات.
- التشكيك في المسلمات.
- التهوين من قدسية القرآن.
- لانفسير للقرآن غير اللغة.
- انكار الجنة والنار والملائكة والجن.

أ . نقد القرآنيين على أساس المنهج التفسيري للعلامة الطباطبائي (ره):

القرآنيون يعتقدون أن القرآن لا يحتاج لتفسيرٍ من أحد، لأن التفسير يكون للشيء الغامض أو المعقّد، بينما القرآن ميسّر للفهم والتدبر، لذلك يرفضون روايات أسباب النزول ولا يعتقدون بحجية تفسير النبي^(ص) أو التفسيرات في كتب التراث، يقول أحمد صبحي منصور: بيان القرآن في داخل القرآن، القرآن كتابٌ مبينٌ في ذاته، وآياته موصوفة بالبينات، أي: التي لا تحتاج في تبينها إلا لمجرد القراءة والتلاوة والتفكير والتدبر فيها، والآيات التي تتحدث عن بيان القرآن ووصفه بالكتاب المبين أكثر من أن تحصى، مع ذلك فإنّ منا من يعتقد: أن كتاب الله غامض، مبهم، يحتاج إلى من يفسره، والمؤمن بالقرآن لا يبادر باقتحام كتاب الله بأنه فرط، وجاء غامضاً يحتاج لما يبينه، وجاء مجملاً يحتاج لمن يفصله... . ويقول تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء)، والتبيان هو التوضيح لما يستلزم البيان والتوضيح، والشيء الواضح بذاته لا يحتاج لما يبينه ويوضحه، وإلا كان فضولاً في الكلام، وثرثرة لاحاجة إليها.

والله سبحانه وتعالى أنزل كتابه محكماً لا مجال فيه للغو والتزويد، لذا كان البيان فيه لما يتطلب البيان، وكل شيء يستلزم البيان والتوضيح جاء في القرآن بيانه وتوضيحه، وماليس محتاجاً لبيان فلا مجال فيه للتفصيل والبيان (منصور، ٢٠٠٦م: ٣٤).

للجواب على هذه الشبهة نقول: إن السمراد بتفصيل وتبيان الكتاب لكل شيء يعني: تفصيل وتبيان القرآن لكل شيء من أحكام هذا الدين، كقواعد كلية مجملة، وأما تفاصيل تلك القواعد وما أشكل منها فالبيان راجع إلى تبیین رسول الله^(ص) وإليك التوضيح:

أجمع المفسرون على أن القرآن الكريم هو المنبع الأساسي لتفسير آيات القرآن، لكن مع ذلك هل يجوز تفسير القرآن بالقرآن دون الاعتماد على مصادر تفسيرية أخرى أم أنّ القرآن هو المصدر الوحيد الذي ينبغي الاكتفاء به؟ هل نحتاج في تفسير بعض الآيات للرواية التفسيرية عن المعصوم^(ع)؟

العلامة الطباطبائي^(رض) يعتقد من جهة أنّ آيات القرآن التي تدعو الناس عامةً، من كافر أو مؤمن، ممن شاهد عصر النزول أو غاب عنه، هذه الآيات التي تدعوهم إلى تعقل القرآن وتأمله والتدبر فيه كقوله تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه

اختلافاً كثيراً) نساء/٨٢ تدلّ دلالة واضحة على أن المعارف القرآنية يمكن أن ينالها الباحث بالتدبر والبحث، ويرتفع به ما يتراءى من الاختلاف بين الآيات والمعنى لإرجاع فهم معاني الآيات إلى فهم الصحابة وتلامذتهم حتى إلى بيان النبي (ص)، فإنّ ما بينه إمّا أن يكون معنى يوافق ظاهر الكلام، فهو ما يؤدي إليه اللفظ ولو بعد التدبّر والتأمّل والبحث، وإمّا أن يكون معنى لا يوافق الظاهر ولا أن الكلام يؤدي إليه، فهو ممّا لا يلائم التحدي ولاتتم به الحجة.

ومن جهة أخرى يعتقد العلامة أنه لا سبيل لإنكار الروايات في التفسير، لأنها تلعب دورين أساسيين: دور التعليم ودور التبيين؛ فدور النبي (ص) التعليمي يبرز من خلال هداية المعلم الخبير ذهن المتعلّم وإرشاده إلى ما يصعب عليه العلم به والحصول عليه، لا ما يتنوع فهمه من غير تعلّم، بل إنّ التعلم تسهيلٌ للطريق وتقريبٌ للمقصد، لا إيجاداً للطريق وخلقٌ للمقصد، والمعلم في تعليمه إنّما يروم ترتيب المطالب العلمية ونضدها على نحوٍ يستسهل ذهن المتعلم ويأنس به، فلا يقع في جهد التركيب وكّد التنظيم، فيتلف العمر وموهبة القوة، أو يشرف على الغلط في المعرفة، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) نحل/٤٤، وقوله تعالى: (ويعلمهم الكتاب والحكمة) الجمعة/٢.

فالنبي يعلم الناس ما يدل عليه القرآن بنفسه، ويمكن للناس الحصول عليه، وإلاّ فإنه لا معنى لقوله تعالى: (وهذا لسان عربي مبين)؛ وأما الدور التبييني للروايات فإنه ينحصر بآيات الأحكام وتفصيلها التي لا سبيل إلى تلقيه من غير بيان النبي (ص) كما أرجعها القرآن إليه في قوله تعالى: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) الحشر/٧، وما في معناه من الآيات كتفاصيل القصص والمعاد (الطبائبي، ١٣٩٣: ١٥/٣).

ويؤكّد العلامة الطبائبي أنّ التفسير الروائي للمعصومين (ع) له دورٌ تعليميٌّ فيقول: الآيات تفسّر بعضها بعضاً ودور النبي (ص) وأهل البيت (ع) بالنسبة للقرآن دور المعلم المعصوم الذي لا يخطئ، وتفسيرهم للقرآن بالقرآن لن يخالف ما أراده الله من آياته (الطبائبي، ١٣٧٢: ٦٠).

يبيّن العلامة الطباطبائي أن ما يؤكد الدور التبييني للنبي (ص) في تفسير القرآن أن المعارف الإلهية لا يراها الناس بلا واسطة فلا بدّ من بعث واحدٍ منهم للتبيين والتعليم (الطباطبائي، ١٣٩٣: ٢٦/١٢)

إنّ ما يرفضه العلامة الطباطبائي ألاّ نلجأ للرواية فنحصر بها معنى الآية، بل يجب أن تنطق الآية بممدولولها، ولكن بالرجوع للرواية يُفسّح أمامنا المجال أكثر، ليضعنا في جوّ الآية وأفقها الأوسع، وليتّضح ويكتمل المعنى المراد منها، وهذا أمرٌ لا مجال لرفضه (معرفت، ١٣٨٥: ١٨).

ففي الآية: (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) بقرة/١٥. التلاوة أمرٌ يختلف عن التعليم، وإلاّ لم يفرّق القرآن بين التلاوة والتركية والتعليم. وتشير هذه الآية إلى أن على الرسول مسؤوليات من ضمنها التربية والتعليم، (وتعليم الكتاب يكون بتفسيره قولاً وعملاً)، وأن ثمة أموراً لا بد له من شرحها لنا، إذاً ففهمنا وحده غير كافٍ في إدراك كنه بعض الحقائق القرآنية، ومن هنا تتبيّن ضرورة وجود المعلم الذي لا يخطئ، وأن مجرد إبلاغ القرآن وتلاوته لا يكفي، إذ لو كان كذلك صحيحاً لاكتفت الآية بذكر التلاوة فقط، فيما أنّ هناك آية أوضح دلالة وهي قوله تعالى (وأنزّلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)؛ هذه الآية خير دليل على كون الرسول (ص) مفسراً للآيات، وأنّ القرآن محتاجٌ للتفسير النبوي، وبالنتيجة لا يمكننا فهم القرآن فهماً دقيقاً إلاّ عن طريق الرجوع إلى كلام الرسول، ولو في بعض الآيات القرآنية، وأبرزها الآيات التي جاءت بمجمل، كآيات التي تتعلق بالصلاة، بيد أنّها لم تتطرّق لكيفيتها أو عدد ركعاتها، فهذه المسألة تؤكد أمرين: أحدهما إثبات وحي للنبي (ص) غير القرآن، وثانيهما حجية التفسير النبوي الذي لا يمكن أن يخطئ بمقتضى العصمة ومقتضى حجية المهمة الإلهية التي أوكل بها بعنوانه المعلم للكتاب.

قال الامام الصادق (ع): (إن رسول الله (ص) نزلت عليه الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله (ص) هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكاة ولم يسم لهم من كل أربعين درهماً حتى كان رسول الله (ص) هو الذي فسّر ذلك لهم). (الكليني، ١٤٢٦هـ: ٢٨٧/١) إن سيرة علماء المسلمين ومفسريهم عبر التاريخ تؤكد أهمية الروايات في التفسير وتعتبرها منبعاً لاغنى عنه في فهم الآيات؛ وما لاحظناه في كتاب أحمد صبحي منصور هو استفادته

لبعض روايات أسباب النزول لكن دون تصريح بمصدرها، كما بين سبب نزول آية الظهار (منصور، ٢٠٠٦ م: ٦٥) بطريقة موافقة تماماً لما أجمع عليه المفسرون في كتبهم . وبناء على ماتقدم فلا يمكن إنكار دور الرواية في حال التأكد من صحة صدورها عن النبي (ص) والمعصومين (ع) في فهم المراد من الآية، لأنها تضعنا في أفق وجو الآية، فتسهل علينا السبل لتفسيرها ونيل المراد منها، ولأن دور النبي (ص) في التفسير دور المعلم المعصوم الذي لا يخطئ، وهذه مهمة إلهية أوكلت إليه (ص) بشهادة القرآن والروايات التي لا تسمح المقالة لذكرها. كما لا يمكن إنكار دور النبي (ص) في تفسير الآيات الفقهية وهي الأهم؛ لأننا لا يمكن أن نستغني عن تبين رسول الله (ص) لكثير من الأحكام التي وردت في الآيات بصورة مجملية.

ب . شبهة أن النبي بشر، يتصرف بمقتضى بشريته فيما يصيب وإما يخطئ:

(وأما قولهم بأن النبي بشر يتصرف بمقتضى بشريته، فيمكن أن يصيب ويمكن أن يخطئ، لذا لا حجية لقوله وحديثه)

إن أفضل ما وجدناه من رد على هذه الشبهة هو أننا لو شككنا في عصمة النبي (ص) امتنع الوثوق به مطلقاً، وبالنتيجة انعدم الاطمئنان بصدق رسالته ومعجزته؛ قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى). يبين آية الله جوادى أملي أن هذه الآية لا تدل على أن كل ما يقوله النبي الأمين ليس من تلقاء نفسه فلا يزيد ولا ينقص إلا بأمر من الله فحسب، وإنما تدل على أمر آخر، وهو أن نطق النبي (ص) عين الوحي، وهو كلام الله الذي يجري على لسانه المبارك، كما في قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) انفال/١٧.

فنطق النبي (ص) هو تكلم ونطق إلهي وضمير (هو) في (إن هو إلا وحي يوحى) يرجع إلي النطق الذي مصدره النبي (ص) والمراد نطق النبي (ص) ونطق النبي (ص) ليس إلا وحيًا. وليس المقصود أن ما ينطقه النبي هو مماثل للوحي أو أن ما أوحى به نطقه النبي (ص) فيما بعد لأن هذا مسلّم به ولكن الآية تشير إلي أمر آخر وكان الله سبحانه يقول للنبي (ص) (وما تكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم) (جوادى أملي، ١٣٨٢ش: ٦٤/١) .

كما أن عدم القول بعصمته في كامل سنته القولية والفعلية يتعارض وكون الله جعله أسوة حسنة دون قيد أو تخصيص بأقواله أو أفعاله أو فيما يتعلق بإبلاغ الرسالة وخارج ذلك،

قال تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا).

نظرية (جامعية القرآن) عند القرآنيين دراسة نقدية :

الشبهة الأولى: (لاحتاجة لنا بالسنة فالقرآن بين الشريعة): إنَّ القرآن كافٍ في بيان قضايا الدين وأحكام الشريعة، ما ترك شيئاً ولا فرط في شيء، ومن ثمَّ فلا حاجة لمصدرٍ ثانٍ للتشريع، فالسنة لاحتاجة إليها، ولا مكان لها بدليل قوله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) أنعام / ٣٨ وقوله تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)

فقالوا: إن هذه الآيات وأمثالها تدل على أن الكتاب قد حوى كل شيء من أمور الدين وكل حكمٍ من أحكامه، وإنه بين ذلك وفصله، بحيث لا يحتاج إلى شيءٍ آخر، وإلاَّ كان الكتاب مفرطاً فيه، ولما كان تبيانا لكل شيء، فيلزم الخلفُ في خبره سبحانه وتعالى (منصور، ٢٠٠٦م: ٩١) .

يرى آية الله جوادي آملي في تفسير (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، أن المراد من جامعية القرآن هو أن الله لم يترك أمراً من شأنه أن يؤمن سعادة البشر إلا وقد بينه في القرآن الكريم، فكل الكليات والأصول الدينية وجزئياتها التي من شأنها أن تؤمن سعادة البشر بينها في القرآن الكريم ، إمّا على نحو التفصيل في بعض الآيات، أو على نحو الإجمال في آياتٍ أخرى، وأوكل مهمة تبيين الجزئيات في الآيات المجملة إلى المخاطب الأول الذي هو أدري بتفسير القرآن ومعرفة حقائقه، كما قال رسول الله (ص): (إنما يعرف القرآن من خوطب به)؛ ويعتقد أن القرآن الكريم لم يبين كل حقائق العالم من علومٍ تجريبية: كالرياضيات والفيزياء والفنون، والعلوم الانسانية، وعلم الكلام، والفلسفة وأمثالها، إلا أنه ربّما تكون هذه العلوم في مرتبة أعلى وهي باطن القرآن وحقيقته العليا (أم الكتاب)، لأن جميع هذه الحقائق والعلوم مكنونة فيه، ولكن لا يمكن أن ينالها إلا الإنسان الكامل والذي يراد منه المعصومين الذين بالرجوع إليهم يمكن تحصيل تلك الحقائق والمعارف القرآنية (جوادي آملي، ١٣٨٢ش: ١ / ٢٢٥) .

بينما يرى العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية أنه يمكن أن يكون المقصود من الكتاب في الآية: القرآن الكريم أو اللوح المحفوظ، فإن كان المراد به القرآن المجيد فإنه

لما كان كتاب هداية إلى صراطٍ مستقيم على أساس بيان حقائق المعارف التي لاغنى عن بيانها في الإرشاد إلى صريح الحق ومحض الحقيقة، كما قال تعالى: (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء).

ويعتقد العلامة أن المراد من تبيان كل شيء في الآية للاحتجاج على الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، فهو كتاب هداية؛ لذلك فالمراد من تبيان كل شيء يتعلق بهداية الناس، وكل ما يحتاجونه من أجل الهداية لتلك الأصول. ويترتب عليه دون ذلك فوائد أخرى كالتبحر في توحيد الله تعالى، ولطف قدرته، وعنايته بأمر الخليفة والنظام العام الجاري في العالم، ويبين فيه ما في معرفته خيرٌ للناس وسعادة عاجلهم وآجلهم، ولا يفرط في ذلك (الطباطبائي، ١٣٩٤هـ: ١/ ٣٢٥).

ولا نرى اختلافاً بين رأي كل من العلامة الطباطبائي وجوادي آملي، لأن الهداية تَجُرُّ إلى السعادة، وهما متفقان على ضرورة الرجوع للسنة المطهرة، سواء سنة النبي (ص) أو روايات المعصومين (ع)؛ لأن تفصيل الحقائق القرآنية والعلوم التي لا يمكن نيلها عن طريق ظاهر الدلالة اللفظية يصعب تحصيلها دون الرجوع لسنة النبي (ص) الذي أوكل مهمة تبيين الآيات وتفسيرها بصريح قوله تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم)؛ لكن نظرية القرآنيين لجامعية القرآن تستلزم نفي دور النبي (ص) في تبيين وتفسير القرآن، والأهم من ذلك تفصيل آيات الأحكام التي وردت بصورة مجملة، وهذا يقتضي عدم إيمانهم بكثيرٍ من فروع الدين وتفصيل أحكامه التي لم يصرِّح بها القرآن الكريم.

يبين الدكتور السيد رضا مؤدب أن القول بجامعية القرآن مركّز على ثلاثة اتجاهات: (مؤدب، ١٣٨٦ش: ٢٧٨)

الاتجاه الأول: من يقولون بأن القرآن جامعٌ لكل العلوم، بحيث لا توجد مسألة جزئية إلا وهي موجودة فيه، سواء بما يتعلق بعلم الطب أو الفيزياء والفنون والعلوم الانسانية، كما يعتقد بذلك السيوطي، حيث يقول: «قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء من أنواع العلوم فليس منها بات ولا مسألة هي أصلٌ ألا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السموات والأرض» (السيوطي، ١٤٢٦هـ: ٣٨/٤).

الاتجاه الثاني: يعتقد بعض المعاصرين أن القرآن مشتملٌ فقط على الأمور العبادية التي ترتبط بعلاقة الانسان بربه فقط.

الاتجاه الثالث: وهو ما ذهب إليه العلامة الطباطبائي، وهو القول بالاعتدال، ويراد منه أن القرآن شاملٌ لكل العلوم، ولكن بعض هذه العلوم لا يمكن تحصيلها بالدلالة اللفظية، فإنا لا نهمدي من طريق الدلالة اللفظية للقرآن الكريم إلا على كليات ماتقدم، لكن في الروايات والسنة ما يدل على أن القرآن فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة، ولو صحَّت الروايات لكان من اللازم أن يكون المراد بالتبيين الأعم مما يكون من طريق الدلالة اللفظية، فلعلَّ هناك إشارات من غير طريق الدلالة اللفظية تكشف عن أسرار وخبايا لا سبيل للفهم المتعارف إليها (مؤدب، ١٣٨٦ ش: ٢٧٨). ولا يمكن درك حقيقة تلك الإشارات دون الاستعانة بالروايات.

ج. شبهة أن النبي غير الرسول: ومن شبهات القرآنيين أهم فصلوا شخصية النبي^(ص) عن شخصية الرسول؛ ففي الفصل الثاني في كتاب (القرآن وكفى) للدكتور أحمد صبحي منصور يذكر تحت عنوان: القرآن والنبي والرسول) مايلي: «يخطئ الناس في فهم الأمر بطاعة الرسول واتباع الرسول، وذلك لأنهم يخطؤون في فهم الفارق بين مدلول النبي ومدلول الرسول، فالنبي هو شخص (محمد بن عبد الله) في حياته وشؤونه الخاصة وعلاقاته الانسانية بمن حوله، وتصرفاته البشرية مما كان مستوجباً عتاب الله تعالى له، أما حين ينطق النبي بالقرآن فهو الرسول الذي تكون طاعته طاعةً لله، فلم يأت في القرآن مطلقاً: أطيعوا الله وأطيعوا النبي، لأن الطاعة للرسالة وليست لشخص النبي» (منصور، ٢٠٠٦: ٤٣).

الرد على هذه الشبهة:

الهدف من هذه الحيلة هو الفصل بين محمد النبي ومحمد الرسول. إن استراتيجية هذه الحيلة قائمة على مايلي:

افتراض أن الفرق بين لفظي (الرسول والنبي) يستلزم الفصل بينهما وهي فرضية خبيثة لادليل عليها، كالقول إن تعدد الأسماء الحسنی لله تعالى يعني تعدده عزوجل، تعالى عن هذرهم.

والهدف الذي يرومون إليه ليس فقط نسف واجتثاث السميراث الروائي والسنة النبوية فحسب، وإنما القول بعدم حجية كل أشكال الاتباع للنبي^(ص)، فيما يخرج عن دائرة تبليغ الرسالة (القرآن).

وفي دحض هذه الشبهة يمكن القول:

١ — هل طاعة الرسول الكريم أقوى أم أنه: (أولى بالمؤمنين من أنفسهم)؟ فالمعنى الأخير يتجاوز معنى الطاعة إلى آفاقٍ أوسع، قال تعالى: (النبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) أحزاب/٦

٢ — جاء السياق القرآني ليتحدث مع النبي بصفته الشاهد والمبشر والنذير، فقال تعالى في وصف نبيه^(ص): (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) (أحزاب/٤٦) والسياق كما هو واضح لا يتحدث عن النبي بما ينحصر في إبلاغه الرسالة فحسب، وإنما في شؤون حياته بصورة عامة مما يلزم وجوب اتباعه والانقياد له.

٣ — ولأنه لافرق بين الرسول والنبي، فكثير من الآيات تخاطبه^(ص) دون أن تشير إلى أي من اللفظين. (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) (نساء/٦٥)

٤ — الجمع بين مفردتي النبي والرسول في آية واحدة: (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) (الأعراف/١٥٧) (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) (الأعراف/١٥٨). كما رأينا أن الاتباع المأمور به غير منحصر بأمرٍ دون غيره فهو مطلق.

إن مفهوم الاتباع الذي ورد في الآية الكريمة مرتبط وملتصقٌ بلفظ النبي^(ص).

٥ — إن كان ما يدعونه صحيحاً فكيف نفسّر الآية: (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شئٍ فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) (نساء/٥٩) بهذا المعنى الذي زعموه؟ وكيف يمكننا أن نطمئن لحكم محمد^(ص)، لأننا لاندري هل يحكم بيننا بمقتضى رسالته أو بمقتضى نبوته؟ فالرسول والنبي شخص واحد، ولا ندري هل حكم هذا الشخص بيننا نابعٌ عن الرسالة الواجبة

الطاعة، أم النبوة التي يمكن أن تخطيء بمقتضى بشرية الناطق بها؟ وبالتالي كيف نحرز حجيةً لحكم النبي؟ وكيف نطمئن من أنه صادر عن الله عز وجل؟ وهذا يصدق على جميع الأحكام التي كلف الله بها النبي، وأمره إبلاغها مخاطباً فيها إياه بلفظ النبي^(ص). قال صبحي منصور: (وقد كانت طاعة النبي - وهو في حياته - في إطار طاعة الله فقط، نفهم هذا من قوله: (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يباعدنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن... ولا يعصينك في معروفٍ فبايعهنَّ واستغفر لهنَّ الله) (متنحه/١٢). ويتابع صبحي منصور: والشاهد في الآية هو قوله تعالى: (يا أيها النبي)، فلو قال (يا أيها الرسول) لكانت طاعته مطلقة، لأنها طاعةٌ للرسالة، ولكنه بوصفه النبي جعل طاعته مقيدة بالمعروف؛ ولذلك فإن كل نبي كان يأتي لقومه برسالة يخاطبهم بصفة الرسول ويطلب منهم أن يطيعوه على أساس هذه الرسالة. (منصور، ٢٠٠٦م: ٥٦).

وللجواب على هذه الشبهة نقول:

إذاً ينبغي بل يجب أن يخاطب الله محمداً^(ص) بلفظ الرسول عندما يكلفه إبلاغ حكمٍ شرعي حتى تكون طاعته واجبة. فإن خاطبه بلفظ النبي فليس على المسلمين امتثال الحكم، لأن محمد النبي يبلغ الحكم بمقتضى نبوته البشرية، وليس رسالته الواجبة الطاعة!! فكيف يطمئن المسلمون من حكم وجوب الحجاب الذي أمر الله به محمداً^(ص) (النبي) أن يبلغه المسلمين كما ورد في قوله تعالى: (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) (أحزاب/٥٩)؟! فربما يخطئ النبي أو يشتبه في إبلاغنا الحكم!! فرغم أن الله^(عز وجل) قال له^(ص): قل، فهو بشر، وربما يخطئ في إبلاغ هذا القول أو ينسى منه شيئاً فيقول غير ما أمره الله به، أليس نبياً حين خاطبه الله وليس رسولاً؟! فكان الأجدر أن يخاطب بلفظ الرسول، لا بلفظ النبي، لنكون أكثر اطميناناً من صدق ما يأمرنا به! فلماذا يخاطبه الله بلفظ النبي ليأمره بإبلاغ أعظم حكمٍ شرعيٍّ أمرت به نساء المسلمين!

د . شبهة لو أن السنة جزءاً من الدين لما فهم النبي عن تدوينها:

إن أحمد صبحي منصور يستشهد بالروايات ويعتبرها حجةً عندما تصبُّ في خدمة آرائه الخاصة، رغم أنه ينكر حجية الأحاديث النبوية، ويمنع منعاً باتاً من يريد المساهمة

في موقعه الإلكتروني أن يذكر حديثاً عن النبي^(ص)، فرغم ذلك يستشهد بالسنة لإنكار حجية السنة!!

عندما يريد أن يسند رأيه في ثبوت الكذب على رسول الله في حياته يضطر أن يلجأ للأحاديث، لأنه لا يجد شاهداً له في القرآن، فيقول في كتابه (القرآن وكفى): «وعلماء الحديث يتفقون على صحة حديث (من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار) وهم يجعلون هذا الحديث من المتواتر!!»

وفي تفسير الآية المباركة: (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) يقول صبحي منصور مستنداً إلى روايات نهى النبي عن تدوين الحديث التي ثبت وضعها: «روى أحمد ومسلم والدارمي والترمذي والنسائي عن أبي سعيد الخدري قال الرسول: لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ومن كتب عني غير القرآن فليمحاه.»

«وأخرج الدارمي - وهو شيخ البخاري - عن أبي سعيد الخدري أنهم استأذنوا النبي في أن يكتبوا عنه شيئاً فلم يأذن لهم». متى كان صبحي منصور يعدد بالبخاري وغيره ممن ستمهم أصحاب الدين الأرضي؟

للرد على شبهة أن النبي نهى عن تدوين الحديث نقول: ولو كان النبي^(ص) نهى عن تدوين حديثه أليس من الأولى باتباع سنته أهل بيته الأطهار^(ع)؟ والواقع والتاريخ يشهد خلاف ذلك، يقول محمد عجاج الخطيب: «كان عند جعفر الصادق بن محمد الباقر (١٤٨-٨٠هـ) رسائل وأحاديث ونسخ، وكان من ثقات المحدثين» (الخطيب، ١٤٢٥هـ: ٣٥٨).

وروى المفضل بن عمر الجعفي عن الصادق^(ع) أنه قال: «اكتب وبث علمك في إخوانك، فإن مت فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمان هرج، لا يأنسون فيه إلا بكتبهم.» (الكليني، ١٤٢٦هـ: ٤٢/١)

ومن الثابت المتواتر أن أهل البيت^(ع) قد أباحوا التدوين؛ إذ كتب الامام علي^(ع) صحيفة عن رسول الله^(ص) طولها سبعون ذراعاً بخطه وإملاء رسول الله^(ص) (الأمين العامي، ١٣٧٠ق: ٩٣/١) إنه ومن أبرز الأدلة على تأكيد النبي^(ص) وإصراره في آخر عمره الشريف على الكتابة وتدوين وصيته لكي لاتضل الأمة من بعده، الحديث المعروف برزية يوم الخميس، والمروى بطرق عدّة عن عبد الله ابن عباس^(رض). (ابن سعد، ٢٤٤/٢، ومهدوي راد، ٢٠١٠م: ٥٥)

كان النبي (ص) يأمر بإبلاغ حديثه ونشره، فقد روي أنه قال (ص): «نصّر الله عبداً سمع مقالتي فبلغها». وكان يكرر قول «فليبلغ الشاهد الغائب» كلما فرغ من حديثه. ومنها الحديث المشهور لعبدالله بن عمرو بن العاص، حيث قال: «كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله (ص) أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله (ص)، ورسول الله بشر يتكلم في الرضاء والغصب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله (ص)، فقال: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق. (الحاكم النيشابوري، ١٤١١هـ: ٦/١)

وقد ورد عنه (ص): «اكتبوا هذا العلم، فإنكم تنتفعون به إما في دنياكم أو في آخرتكم، وإن العلم لا يضيع صاحبه. (متقى هندي، ١٤٠٩هـ. ق: ١٥٧/١)

يقول نور الدين عترة: «كذلك وردت أحاديث كثيرة عن عددٍ من الصحابة تبلغ بمجموعها رتبة التواتر في إثبات وقوع الكتابة للحديث النبوي في عهده (ص)» (عترة، ١٤٠١هـ: ٤٠).

كما أن النصوص الممدونة بإملاء رسول الله (ص) تثبت أن سنته العملية أكدت على ضرورة الكتابة (مهدي راد، ٢٠١٠م: ٨٤).

نقدٌ وتحليل:

نقول للدكتور منصور أولاً لماذا لم يلتزم بما ألزم الناس فيه؟! فقد استشهد بالرواية وهو منكرٌ لحجية الروايات، واستند لأقوال علماء التراث كالدارمي والبخاري والترمذي وغيرهم وهو لا يقيم لهم وزناً ولا لأحاديثهم؟ لكن الحقيقة أنه على ما يبدو أن الدكتور منصور لا ينكر أصل حجية السنة القولية، بل إنَّما قال به ليس إلا نتيجة طبيعية لردود أفعال نتجت عما اصطدم به من تاريخ تدوين الحديث عند أهل السنة، وما نتج عنه من مضاعفات، ودليلنا على ذلك: لو أنَّ القرآنيين فعلاً لا يعتقدون بعصمة النبي، ولا يعتبرون أحاديثه وأقواله خارج الوحي القرآني حجةً، وأنه عندما يتكلم خارج نطاق الرسالة يتكلم بمقتضى نبوته البشرية، فيمكن أن يصيب أو يخطئ، فلماذا يلجأون لتقديم مبررات وأدلة أخرى بهدف إسقاط السنة القولية عن الاعتبار كاللسّ والتزوير والوضع، فلو أنها بالأصل لاحجة لها لأنها خارج الوحي القرآني، فلا معنى للوعي للوعي إلى إسقاطها من خلال أدلة الوضع والتزوير وكثرة أسباب التحريف التي مرَّ بها الحديث عبر التاريخ، فدليلهم على عدم حجيتها كامنٌ في

ذات السنة التي يمكن أن تخطئ بمقتضى بشرية الناطق بها، فلم يتدرعون بأدلة خارجية؟ فهذا لا يسمى إلا لغواً وعبثاً وتناقضاً!!

لكن في الواقع نحن نرى أن آراءهم تجاه السنة القولية ليس إلا نتيجة صدمة لما شهدوا من آثار ومضاعفات حلت على ميراثهم الروائي نتيجة منع خلفائهم الراشدين تدوين حديث رسول الله (ص) بعد وفاته، وتأخر التدوين إلى بداية القرن الثاني الهجري، هذا التأخر الذي نتج عنه ضياع لطائفة من الأحاديث ووضع في الحديث، إماماً على أيدي الممرترقة من عمال الأمويين أو غيرهم لدوافع شخصية ومنافع سياسية، وقد شهدت بذلك نسبة كبيرة من الأحاديث الموضوعية في أمهات كتب الحديث من الصحاح والسنن، كان أكثرها مما صنع في مصانع الأمويين على رأسهم معاوية.

وقد كان سبب اعتناق أكبر زعيم القرآنيين (عبد الله حكرالوي) التيار القرآني هو اصطدامه بحديث لأبي هريرة أثناء قراءته تفسير إحدى الآيات. (ويكيبيديا، الموسوعة الحرة) ونود أن نقول للقرآنيين أنكم أنصفتهم في سرد حقيقة لم يجروا على قولها غيركم من كشف للواقع المر الذي مرّ به الميراث الروائي على أيدي الخلفاء والحكام على رأسهم الراشدون ومن تبعهم من حكام أمويين، لكننا لانوافقكم في إسقاط كل الأحاديث عن الحجية والاعتبار، لأن في ذلك ضياعاً للكثير من الأحاديث الصحيحة والقطعية الصدور، كما يلوح ذلك من قوة فصاحتها وبلاغتها، وفي ذلك هتك عظيم للدين، لأن حجية السنة من حجية القرآن، فنحن نريد أن نعالج الصدع الذي حلّ بالميراث الروائي النبوي من جرّاء التأخر في التدوين، وتسليم خلافة المسلمين لغير أهلها، وما نتج عن ذلك من مضاعفات، وأنتم تريدون أن تجتثوا الرأس، فتتسفوا كل ما نسب للنبي (ص) من أحاديث صحيحة، بل قطعية الصدور بإجماع الأمة، وهنا ينحصر الحل بوضع معايير وقواعد لتمييز الحديث الصحيح من السقيم ووضع أمارات للحديث الموضوع، كي نحفظ السنة القطعية والمتواترة من الضياع.

النتيجة

إن الروايات الموضوعية شكّلت للقرآنيين ذريعةً ليينوا عليها جداراً يفصلوا من خلاله السنة عن القرآن، فلا بدّ لهذا الجدار الوهمي أن يسقط بجهود علماء المسلمين لتنقية الثروة

الروائية من الموضوعات، ليلتقي الحديث بالقرآن، ويصنّفان في معينٍ واحدٍ يهدي المسلمين إلى سعادتهم وكمالهم. وتكون السنّة التي في كتبنا ومصنّفاتنا الحديثية هي عين السنّة التي أوصانا النبي الأعظم^(ص) بحفظها، حيث قال: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيّتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما» (الترمذي، ٨/٢) ولا تعارض بين هذا الحديث وما ورد عن النبي^(ص) من طرقٍ أُخرى: (كتاب الله وسنتي)، لأنّ عترّة النبي امتداداً لسنّته بشهادة القرآن والروايات.

ويمكن القول أنه لانقاش بين الشيعة وسائر المسلمين في اعتبار أساس الحديث الذي أمضاه القرآن، إلا أنه وعلى إثر التفريط الذي مارسه حكام صدر الإسلام في حفظ الحديث، والإفراط الذي صدر من الصحابة والتابعين في أهمية العمل بالحديث، فقد لقي الحديث مصيراً مؤسفاً، حتى بلغت الحال أن صار الحديث حاكماً ومقدماً على القرآن، بل قد ينسخ حكم آيةٍ بالحديث. وقد عمل أعداء الإسلام على وضع الحديث ودسه وتغييره، ممّا أطاح بوثوق الأحاديث واعتبارها، لهذا فقد فتش علماء الدين عن مخلص لهذا الوضع القائم، فأشادوا علم الرجال وعلم الدراية. وأما الشيعة، فبالإضافة إلى ضرورة تنقيح السند عندهم، اعتبروا أنه من الضروري مطابقة متن الحديث مع القرآن، ورأوا أنّ الأحاديث - وفقاً لذلك - على طوائف ثلاث:

- الموافقة للكتاب، وهي التي كانوا يعملون بها.
- المخالفة للقرآن، وكانوا لا يعملون بها.
- الأحاديث التي لا يتحدّد مدى موافقتها أو مخالفتها للكتاب الكريم، وقد تركوا هذه الأحاديث وجعلوها في عداد المسكوت عنه. (الطباطبائي، د.ت: ٤١)

المصادر

القرآن الكريم.

- ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، د.ت.
- الهي بخش، خادم حسين، القرآنيون وشيخاتهم حول السنّة، مكتبة الصديق، ١٩٨٩
- الأمين العاملي، محسن، أعيان الشيعة، دمشق، مطبعة ابن زيدون، ١٣٧٠ ق.
- الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، بيروت، دار إحياء السنّة النبوية، د.ت.

- جوادى أملي، عبدالله ، تفسير موضوعي قرآن كريم، قم، مركز نشر إسرائ، ١٣٨٢هـ.
- الحاكم النيشابوري، المحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١١هـ.
- الخطيب، محمد عجاج، السنة قبل التدوين، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٥ ق.
- الحوثي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي، ط ٣، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، بيروت، دار الفكر، ١٤٢٩هـ — ٢٠٠٨م.
- سعد، رستم، الفرق والمذاهب منذ البدايات، الدار البيضاء، نشر أنوار، ط ١، ٢٠٠٨م.
- شرف الدين العاملي، عبد الحسين، المراجعات، تحقيق حسين الراضي، قم المقدسة، المجمع العالمي لأهل البيت (ع)، ١٤٢٦هـ.ق.
- الشهرستاني، علي، منع تدوين الحديث، قم، مؤسسة الإمام علي (ع)، ١٤١٨هـ.
- الطباطبائي، محمد حسين، السميزان في تفسير القرآن، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ١٣٩٤
- _____، الشيعة في الاسلام، دار الكتب الاسلامية، د.ت .
- _____، قرآن در اسلام، قم، دفتر انتشارات اسلامي، ١٣٧٢ش.
- عتر، نور الدين، منهج النقد في علوم الحديث، دمشق، دار الفكر، ط ٢، ١٤٠١هـ.
- الكليبي، محمد بن يعقوب، الكافي، بيروت، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، بيروت، مؤسسة الوفاء، ١٤٠٣هـ .
- مؤدب، سيد رضا، مباني تفسير قرآن، انتشارات دانشگاه قم، ١٣٨٦هـ.ش.
- متقي هندي، حسام الدين، كثر العمال في سنن الأقوال والأفعال، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٩ ق.
- معرفة، محمد هادي، پژوهش هاي قرآني، قم، مؤسسة التمهيد، ط ١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- مهدي راد، محمد علي، تدوين الحديث عند الشيعة الإمامية، نشر هستي نما، ط ١، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م

فهرس المصادر الالكترونية والمجلات

- أحمد عبدالله، من هم منكري السنة؟ كانون الثاني (يناير) ٢٠١٠م (www.ansarsunna.com)
- دانشنامه جهان اسلام، <http://www.tolueislam.com>
- منصور، أحمد صبحي، لماذا القرآن أو (القرآن وكفى)، لعبد الله خليفة، ٥ تموز (يوليو)، ٢٠٠٦م
- (www.ahl-alquran.com). الكتاب لأحمد صبحي منصور لكنه نشر باسم عبدالله خليفة .
- مزرعة، محمود محمد، شبهات القرآنيين حول السنة النبوية، منتدى التوحيد، ٢٠٠٥ (www.eltewhed.com)
- ويكيبيديا ، الموسوعة الحرة .